ابتهال [1]

يا مَنْ له تعنو الوجـــوه وتخشـــعُ
ولأمـــره كـــلُّ الخلائـــقِ تخضـــعُ
أعنـــو إليـــك بجبهـــة لم أحنـــها
إلا لوجهـــك ســـاجدًا أتضـــرَّع
وإليك أبسطُ كـــفَّ ذلٍّ لم تكـــن
يومًا لغير سؤالِ فضـــلك تُرفـــع
أنا من علمتَ المذنبُ العاصي الذي
عظمت خطاياه فجـــاءك يُهـــرَع
كم ساعةٍ فرَّطت فيهـــا مســـرفًا
وأضـــعتُها في زائـــل لا ينفـــع

---

(١) أنشئت هذه القصيدة وأنا معتقل اعتقالاً انفراديًّا في مبنى المخابرات المصرية ، في صيف ١٩٦٢ ، لمدة خمسين يومًا .

obeikandl.com

كم بـــتُ ليلـــي كلَّـــه متشـــاقلاً

وذوو التقى حـــولي قيـــامٌ رُكَّـــع

كم بال في أذنيَّ شـــيطانُ الكـــرى

فإذا الصباحُ على نئـــوم يطلُـــع[1]

كم زيَّنت لي النفسُ سوءَ فعالهـــا

فأطعتُها ضعفًا ، وبـــئس الطيِّـــع

كم وسوس الخنَّاسُ في صدري فلم

يجد الذي يعلـــو قفـــاه ويصـــفع

كم أقرأ الآياتِ لو نزلـــت علـــى

شـــمِّ الجبـــالِ رأيتُهـــا تتصـــدع

مـــالي أردِّد وعـــدها ووعيـــدها

مارقَّ قلبي أو جـــرى لي مـــدمع

---

(١) هذا البيت إشارة إلى ما رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال : ذُكر عند النبى ﷺ رجل نام حتى أصبح . . فقال « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيهِ ».

كم من نفوس بالهـدى ذكَّرتُهـا
فمضت كما يمضي الجواد المسرع
أيقظتها للخـير حـين تـركتُني
فى غفلـة الـدُّنيا أتيـهُ وأرتـع
ياحسرتا!! أعظُ الأنـامَ، فليـتني
نفسي وَعَظْتُ ، فوعظُ نفسي أنفع

* * *

يا ربِّ حكمتُك اقتضـتني مـذنبًا
لأجيءَ بَابك أسـتجيرُ وأضـرع
فترى عُبَيْـدَك تائبًـا مسـتغفرًا
وأراك غفَّـارًا لـذنبٍ يفظـع
أنا إن عصيتُ فذاك مـن نقصـي
غيرُ الإله لـه الكمـالُ الأرفـع؟

يا ربِّ أنت خلقتني من طينةٍ

ومن الذي لأصوله لا يترع؟!

لولا هداك ونفخة علوية

أودعتَها روحي لكان المصرع

فبها أصولُ على التراب ترفُّعًا

وبها أُحلِّقُ حين تصفو الأضلع

الطينُ يجذبُني إليه بشدةٍ

والروحُ تُصعِدُني إليك وترفع

فإذا ارتقيتُ إلى رضاك فغايتي

وإذا هبطتُ فدائمًا أتطلَّع

* * *

هو الابتلاء، عليه قام وجودنا

وبه نُهيَّأُ للخلودِ ونُصنع

النار بالشَّـــهوات حُفَّـــت فتنـــةً

فليمـــــرحِ الفُجَّـــــارُ وليتمتعـــــوا

أمـــا الجنـــان فإنـــــها محفوفـــة

بمكارهٍ تُـــدْمي الفـــؤادَ وتوجـــع

الـــزَّاد قُـــلٌّ والـــديار بُعيـــدةٌ

والظهر نِضْوٌ ، والرَّفيـــقُ مضـــيّع

وهناك قطَّـــاعُ الطَّريـــقِ طوائفًـــا

شتَّى ، تُضِلُّ عن المـــراد وتقطـــع

إبليسُ يُغوي والهوى شَـــرَكٌ لـــه

والعيشُ يُغري ، والأماني تخـــدع

وهُنـــاك قُطَّـــاعٌ عتـــاة أعلنـــوا

حربًا تخيـــفُ السَّـــائرين وتُفـــزِع

جرءوا عليك وأنت تحلمُ عنهمو!

ولكلِّ شـــيءٍ عنـــد ربي مرجـــع

هذي الطريــقُ ، وإنهــا لمخوفــةٌ
ربِّ اهدني وأعن عسى لا أُقطَــع!

* * *

يا ربِّ عبدُك عند بابك واقف
يدعوك دعوة من يخاف ويطمــع
فإذا خشيتُ فقد عصيتُك جــاهلاً
وإذا رجوتُ فإن عفــوك أوســع
يا ربِّ إن أكُ في الحقوق مفرِّطًــا
فلأنت أبصــرُ بــالقلوب وأسمَــع
بين الجوانحِ خافقٌ يهــوَى التُّقــى
ويضيقُ كُرهًا بالذنوب ويَجــزَع
ويحبُّ ذكرَك ، والقلوبُ إذا خَلَتْ
من ذكر ربِّي فَهْــي بُــورٌ بَلقــع

ولكم ذكرتُك خاليًـــا فوجـــدتُني
والقلب في وجل ، وعيني تـــدمَعْ
هل لي رجاء إنـــني ممـــن دَعَـــوْا
يومًا إليك وقال : توبوا وارجعوا؟!
وحملتُ مصباحَ الهدايـــةِ مرشـــدًا
أهناك كالقرآنِ نـــورٌ يســـطع؟!
ومشيتُ في ركبِ الهداةِ ، وإن كن
أبطأتُ في طلبِ الكمالِ وأسرعوا!
حسبي أحِبُّهُمو وأقفـــو خطـــوهم
ولَكَمْ أرى حبَّ الأكـــابرِ يشـــفع

* * *

يا ربِّ مالي غـــيرَ بابـــك مفـــزع
آوي إليـــه إذا يعـــزُّ المفـــزع

مالي سوى دمعي إليــك وســيلةٌ

وضراعتي ، ولمن سواك سأضرع؟!

إن لم أقف بالبابِ راجــيَ رحمــةٍ

فلأي باب غيرَ بابــك أقــرع؟!

إن لم يكن منِّي الذنوبُ ، ومنك أن

تعفو ، فأين اسمُ العفوِّ المُطْمِــع؟!

أين الغفورُ؟ وأيــن رحمتُــه الــتي

وسعت جميع الخلقِ؟ أين الموسع؟!

هذا أوانُ العفو ، فاعف تفضُّــلاً

يا مَنْ له تعنو الوجــوه وتخشــع!

* * *

مُنَاجَاة

بعد أربعين يومًا على الفراش ، من مرض أوهن العظم ، وأنقض الظهر ، أقعدني عن جامعي وجامعتي ، وحال بيني وبين أحبابي وطلابي - حنّت النفس إلى الشعر بعد هجر طويل ، فجاد الخاطر بهذه الأبيات أناجي بها ربي ، وأذكر بها ذنبي :[1]

يَاربّ ها جِسْمي يَشيخُ ويَمْرَضُ
والوَهْن وَافَاني سَرِيعًا يُوفضُ
ولّت سِنُو عُمْري كرؤيا نَائمٍ
ومَضَى شَبَابيَ مِثْلَ بَرْقٍ يومِضُ
ودنَا الرَّحيلُ ولَمْ أُهَيِّئ زَادَه
وخيامُ أيَّامِي تَكادُ تُقَوَّضُ

(١) في منتصف شعبان سنة ١٤٠٥م ، وفي أوائل مايو ١٩٨٥م .

كلُ النَفَائس قَدْ تُعَــوّضُ إنْ تَضِــعْ
والعمر ــ إنْ ضيَّعْتَ ــ لَيسَ يُعوَّضُ
ما بعد نُضْج الزَرْعِ غــير حصَــادِه
هِــيَ ســنةٌ لله لَيْسَــتْ تُــنْقَضُ
وإذا أتــى الأجــلُ المقــدرُ وقتُــه
لم يُغْــنِ عَنْــكَ مطبِّــبٌ ومُمَــرِّضُ

* * *

مالي ـ وقدْ فرطْتُ في أمري ـ سوى
ربٍّ إلى نَفحَاتِــــــه أتَعَــــــرَّضُ
ما كان منْ عُذْر لِتَقْصــيري ســوى
نفْسٍ تُقَــادُ إلى الجِنَــانِ فَتُعْــرِضُ
كَسْلَى ، عن الخَيْرَاتِ جِــدُّ ثقيلــةٍ
وَهْيَ الجَــوَادُ إلى البطالــةِ يَــرْكُضُ

نامت وأهل الجـدِّ قُـوّامٌ ، ولَـمْ
تَنْفضْ غُبارَ النـومِ فيمـا يُـنْفَضُ
لم تَحْذُ حَذْوَ الصـادقين وظهْرُهَـا
مِنْ زَحْمَةِ الأوْزَارِ أوشَـكَ يُـنقَضُ
قَعَدَتْ ، ولم تبذلْ كما بَذَلُوا ، وَلَـمْ
تَسْمَعْ دعاءَ اللهِ: « مَنْ ذَا يُقْرِضُ »؟ (١)
أشْهَدْتَهَا ، ربي : ألسـتُ بـرَبِّكُمْ؟
قَالَتْ : بَلَى ، فلِمَا تَحيدُ وتَـنْقُضُ؟
ودَنَـوْتَ منْهـا بالعطـاءِ تحبُّبًـا
يا وَيْحَهَا ، بالجَهلِ ، منك تَـبَغَّضُ!
يارَبِّ ، في الأولى سَتَرْتَ نقائصـي
فأتمَّ سِتْرَكَ يـومَ عِنْـدَكَ أُعْـرَضُ

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (الحديد: ١١).

مَالي سِواكَ إذا الخُطُـوبُ تَفَاقَمَـتْ

أمْري إليكَ على الـدوامِ مُفَـوَّضُ

لو كـان لي ربٌّ سِـواك رَجَوْتُـهُ!

فَلمَنْ أمدُّ يَدِي وَمَـنْ أسْـتَقْرِضُ؟

ربّـاه ، إنَّ رضـاكَ غايـةُ مَطْلَـبي

ما ضَرَّني سَخِطَ البَرِيَّـةُ أَمْ رَضُـوا

يا جَابِرَ العَثَرَاتِ ، كُـنْ لي جـابرًا

كَمْ عاثِرٍ إنْ تَرْضَ عَنْـهُ سَـيَنْهَضُ!

وارفع مكاني ــ ربِّ ــ عندَك بالتُّقَى

مَنْ تَرْفَعِ اللَّهُمَّ مَـنْ ذَا يَخْفِـضُ؟!

وابْسُطْ علـيَّ عَطـاءَ ربٍّ باسِـطٍ

بَرٍّ ، فإنْ تَبْسُطْ فَمـنْ ذا يَقـبِضُ؟!

أنا عائذٌ لحِمَـــاكَ ، فـــاقْبَلْني عَلَـــى
مابي ، وإنْ تَقْبَلْ فَمَنْ ذَا يَـــرْفُضُ؟!
آتيـــتني القـــرآنَ ، فـــانْفَعْني بـــه
وأقـــمْ بـــهِ لي حُجَّـــةً لا تُـــدْحَضُ
بَـــيِّضْ بـــه وَجْهـــي بيَـــوْمٍ قَـــادمٍ
فيـــه الوُجُـــوهُ مســـوَدَّةٌ ومبـــيَّضُ
يا خَيرَ مَنْ أعْطى ، وأكْرَمَ مَنْ عَفَـــا
وإذا دَعَـــاهُ مُـــذْنِبٌ لا يُعْـــرِضُ
ربِّ اسْمُكَ الغفارُ ، فاعْفُ تَكرُّمًـــا
يدعوك مكســـورُ الجنـــاح مهـــيَّضُ
عَبْدٌ بِضَـــاعَتُهُ الكَـــلامُ ، جِهَـــادُهُ
صُحُفٌ تُسَطَّرُ ، أو قريضٌ يُقْـــرَضُ
يدعو الورى للصَّالحاتِ ، وســـفْرُهُ
في صالح الأعْمَـــال خِلْـــوٌ أبْـــيضُ

ويحبُّ دَرْبَ الصَّالحينَ ، وإنْ أكُــنْ

قَصَّرْتُ فيمــا طَوَّلــوهُ وعَرَّضُــوا

لَكِــنْ لَــهُ قَلْــبٌ يُحِبُّــكَ كُلُّــهُ

وقُلوبُ أهْــل الحُــبِّ لا تَتَــبَعَّضُ

سِلْمٌ لِمَنْ والاك ، حَــرْبٌ لِلأُلَــى

عادَوْكَ ، فهو يُحِبُّ فيكَ وَيُــبْغِضُ

يَأسَى لِهَــمِّ المُسْــلِمينَ ، وَهَمُّهُــمْ

شُــمُّ الجِبَــال بِحَمْلِــهِ لا تَــنْهَضُ

فَعســايَ يَشْــفَعُ لي إلَهــي أنَّــني

أبــدًا لِحِزْبِــكَ ناصِــرٌ وَمُحَــرِّضُ

أنْتَ الذي أكــرَمْتَني مُنْــذُ الصِّــبا

وَرَعَيْتَنِي ، والخَيْــرُ مِنْــكَ مُفَــيَّضُ

وَغَرَسْتَني في الدِّينِ مُنْـذُ حَـدَاثَتي
وَوَهَبْتَني فَضْـلاً يَطُـولُ ويَعْـرُضُ
وَرَزَقْتَني حُـبَّ الأنـامِ تَفَضُّـلاً
إنَّ المَحَبَّـةَ بالعَصَـا لا تُفْـرَضُ
وَغَمَرْتَني بالفَضْلِ مِـنْ قَـرْنِي إلى
قَدَمِي ، يَـراهُ محـدِّقٌ أوْ مُغْمِـضُ
فَأتِمَّ بالغُفْرانِ فَضْلَكَ...والرِّضَـا
مَنْ ذاقَ حُلْوَكَ لَمْ يَطِقْ ما يَحْمُـضُ
واحْشُرْنِ في رَكْبِ الحَبِيبِ المُصْطَفَى
وَمَعَ الَّذينَ لِوَجْـهِ دِينِـكَ بَيَّضُـوا
واجعَلْ مِنَ العِلْمِ الـذي عَلَّمْـتَني
نورًا يُضِيءُ ، وَروحَ بَعْـثٍ يُـنْهِضُ
وَارْزُقْنِيَ الإخْلاصَ حَتَّـى لا أُرى
إلاَّ وَكُلِّـي في رِضـاكَ مُمَحَّـضُ

وأتِمَّ بالتَوْفِيقِ مـــا أرْجـــو ، فَـــلا
يُغْتَالُ ، أو أعْيا بـــه ، أو يُجْهَـــضُ
وامْـــنُنْ عَلَـــيَّ بنفحـــةٍ عُلْويَّـــةٍ
أُشْفَى بـــها مِنْ كُـــلِّ داءٍ يُمْـــرِضُ
لأظَلَّ لاسْمِكَ ذاكـــرًا وَمُسَـــبِّحًا
كَيْ أُرْتَضَى فيمَنْ لَدَيْكَ قَدِ ارتُضُـــوا
وأعِيشَ يا رَبِّـــي لِـــدِينِكَ داعيًـــا
ما دامَ بِي نَفَـــسُ ، وعِـــرْقٌ يَنْـــبِضُ

* * *